روبنسون كروزو

تأليف
دانيال ديفو

ترجمة
مروة ماهر الحق

مراجعة
إيمان عبد الغني نجم



روبنسون كروزو

Robinson Crusoe

دانيال ديفو

Daniel Defoe

الطبعة الأولى ٢٠١٣م
رقم إيداع ٢٠١٣/١٤٢٣٩
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

ديفو، دانيال.
روبنسون كروزو/تأليف: دانيال ديفو.
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٣٣٧ ٥

١–القصص الإنجليزية

أ–العنوان

رسم الغلاف: إيمان إبراهيم، تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات

الفصل الأول

حَياةُ بَحّارٍ

اسْمِي رُوبِنْسُونْ كرُوزُو. وُلِدْتُ عَامَ ١٦٣٢ بِبَلْدَةِ يُورْكَ، وَكُنْتُ الِابْنَ الْأَصْغَرَ مِنْ بَيْنِ أَبْنَاءٍ ثَلَاثَةٍ، وَكَانَ أَخِي الْأَكْبَرُ جُنْدِيًّا لَكِنَّهُ لَقِيَ حَتْفَهُ فِي مَعرَكَةٍ ضِدَّ إِسْبَانْيَا، فِيمَا اخْتَفَى أَخِي الثَّانِي مِنْ حَيَاتِنَا حِينَمَا رَحَلَ يَوْمًا مَا وَلَمْ يَعُدْ قَطُّ. وَبِذَلِك فَقَدَ أَبَوَايَ اثْنَيْنِ مِنْ أَبْنَائِهِمَا وَلَمْ يَرْغَبَا فِي أَنْ يَفْقِدَا الثَّالِثَ؛ لِذَا أَرَادَ أَبِي أَنْ أَظَلَّ فِي الْوَطَنِ وَأَنْ أُصْبِحَ مُحَامِيًا، لَكِنَّنِي كُنْتُ أَعْشَقُ الْمُغَامَرَاتِ الرَّائِعَةَ وَالْبِلَادَ الْبَعِيدَةَ؛ فَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ بَحَّارًا!

فِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، دَعَانِي أَبِي إِلَى غُرْفَةِ مَكْتَبِهِ، وَكَانَ رَجُلًا وَقُورًا عَابِسَ الْعَيْنَيْنِ وَحَادَّ الذَّكَاءِ. تَحَدَّثَ إِلَيَّ لِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ عَنْ أَحْلَامِي، وَكَانَ أَبِي قَدْ عَمِلَ بِجِدٍّ لِكَيْ يُوَفِّرَ لِأُسْرَتِهِ حَيَاةً آمِنَةً كَرِيمَةً. فَكَيْفَ لِي أَنْ أَتْرُكَ كُلَّ شَيْءٍ وَرَاءَ ظَهْرِي لِأَعِيشَ حَيَاةً فِي أَعَالِي الْبِحَارِ؟

لَمْ أَنْبِسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ دِفَاعًا عَنْ حُلْمِي؛ إِذْ كَانَ الْإِبْحَارُ عَمَلًا شَاقًّا وَمُخِيفًا، وَفَقَدَ الْعَدِيدُ مِنَ الرِّجَالِ حَيَاتَهُمْ فِيهِ، وَفِيهِ أَيْضًا ضَلَّتْ قَوَارِبُ عَدِيدَةٌ الطَّرِيقَ، وَتَرَكَ عَدِيدُونَ وَطَنَهُمْ وَلَمْ يَعُودُوا قَطُّ تَارَةً أُخْرَى، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْمُثِيرَةُ تَشْحَذُ خَيَالِي.

قُلْتُ لِأَبِي: «أَعرِف أَنَّ الْأَمْرَ مَحْفُوفٌ بِالْمَخَاطِرِ يَا أَبِي، لَكِنَّنِي أَشْعُرُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ قَدَرِي، أَنَا آسِفٌ.»

بَدَأَ أَبِي فِي الْبُكَاءِ، وَشَعَرْتُ بِأَسًى بَالِغٍ لِأَنَّنِي أَحْزَنْتُهُ؛ لِذَلِكَ قَرَّرْتُ أَنْ أَظَلَّ فِي دِيَارِي، فِي الْوَقْتِ الْحَالِي.

بَذَلْتُ قُصَارَى جُهْدِي كَيْ أَتَجَنَّبَ ذِكْرَ الْحِكَايَاتِ الَّتِي أَقْرَأُهَا أَوِ الرِّحْلَاتِ الرَّائِعَةِ الَّتِي أَسْمَعُ الرِّجَالَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْهَا فِي الطُّرُقَاتِ. فَعَانَيْتُ فِي صَمْتٍ وَحَاوَلْتُ أَنْ أَكُونَ ابْنًا

يَفْخَرُ بِهِ أَبِي، لَكِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ سَهْلًا. فَقَدْ كَانَ قَلْبِي يَتُوقُ تَوْقًا مُوجِعًا لِرَائِحَةِ الْبَحْرِ مِنْ عَلَى سَطْحِ سَفِينَةٍ كَبِيرَةٍ. وَتَاقَتْ قَدَمَايَ لِلسَّيْرِ عَلَى شُطْآنِ الْبِلَادِ الْبَعِيدَةِ، وَلَمْ أَرْغَبْ فِي التَّقَاعُسِ وَإِهْدَارِ شَبَابِي سُدًى؛ فَكُنْتُ أَعْشَقُ الْمُغَامَرَةَ، وَلَمْ يَكُنْ أَيُّ شَيْءٍ غَيْرُهَا لِيُشْعِرَنِي بِالسَّعَادَةِ.

مَرَّتْ بِضْعَةُ أَسَابِيعَ قَصِيرَةٍ، صِرْتُ فِيهَا أَكْثَرَ إِصْرَارًا عَلَى أَنْ أُصْبِحَ بَحَّارًا، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْحَلَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَأَرْكَبَ أَوَّلَ سَفِينَةٍ تُبْحِرُ فَوْقَ صَفْحَةِ مِيَاهِ الْأَبْحُرِ الْبَعِيدَةِ، لَكِنَّنِي كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ سَيُزْعِجُ وَالِدَيَّ، وَبَدَلًا مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى هَذِهِ الْخُطْوَةِ، حَاوَلْتُ التَّحَدُّثَ مَعَ أُمِّي.

قُلْتُ لَهَا: «لَقَدْ حَسَمْتُ أَمْرِي يَا أُمِّي، فَمَا تَمَنَّيْتُ شَيْئًا فِي حَيَاتِي سِوَى أَنْ أُصْبِحَ بَحَّارًا، وَأَرْجُو أَنْ تَسْمَحَا لِي أَنْتِ وَأَبِي بِالْإِبْحَارِ.»

وَاسْتَطْرَدْتُ حَدِيثِي مَعَهَا قَائِلًا: «إِنِّي فِي الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ الْآنَ مِنْ عُمْرِي، فَإِذَا أَجْبَرْتُمَانِي عَلَى أَنْ أُصْبِحَ مُحَامِيًا أَوْ أَجْبَرْتُمَانِي عَلَى تَعَلُّمِ مِهْنَةٍ أُخْرَى، فَسَأَلُوذُ بِالْفِرَارِ. لَكِنْ إِذَا تَرَكْتُمَانِي أَذْهَبُ فِي رِحْلَةٍ وَاحِدَةٍ، فَسَأَعُودُ وَأَفْعَلُ كُلَّ مَا يَطْلُبُهِ أَبِي.»

اسْتَشَاطَتْ أُمِّي غَضَبًا وَرَفَضَتْ أَنْ تَطْلُبَ مِنْ أَبِي أَيَّ شَيْءٍ؛ وَرَفَضَ كِلَاهُمَا الْأَمْرَ رَفْضًا بَاتًّا، وَكَانَتْ تِلْكَ نِهَايَةَ النِّقَاشِ.

حَاوَلَ أَبَوَايَ بِشَتَّى الطُّرُقِ إِثْنَائِي عَنْ قَرَارِ الرَّحِيلِ؛ فَوَعَدَانِي أَنَّ بِإِمْكَانِي الِالْتِحَاقَ بِأَيِّ جَامِعَةٍ أُرِيدُهَا، وَأَخْبَرَانِي أَنَّ بِمَقْدُورِيَ التَّفْكِيرَ فِي أَيِّ مِهْنَةٍ تَحْلُو لِي. لَكِنَّنِي رَفَضْتُ الْعُرُوضَ كُلَّهَا؛ إِذْ كَانَ الْإِبْحَارُ هُوَ حُلْمِي الْوَحِيدَ، وَلَمْ أَكُنْ مستعدًّا لِلقَبُولِ بأَيِّ بَدِيلٍ آخَرَ.

الفصل الثاني

أُولَى رِحْلَاتِي

بَعْدَ عَامٍ تَقْرِيبًا، أَرْسَلَنِي وَالِدِي إِلَى بَلْدَةِ هَالْ لِأَدَاءِ بَعْضِ الْمَهَامِّ لَهُ. وَمَا إِنْ وَصَلْتُ إِلَى هُنَاكَ حَتَّى الْتَقَيْتُ صُدْفَةً بِجُونْ — وَهُوَ صَدِيقُ دِرَاسَةٍ قَدِيمٌ — وَكَانَ وَالِدُهُ قُبْطَانَ سَفِينَةٍ مُبْحِرَةٍ إِلَى لَنْدَنَ.

قُلْتُ لَهُ: «إِنَّكَ لَمَحْظُوظٌ! فَكُلُّ مَا أَرَدْتُهُ فِي حَيَاتِي هُوَ أَنْ أُصْبِحَ بَحَّارًا، لَكِنَّ وَالِدَيَّ لَنْ يَسْمَحَا لِي بِالْإِبْحَارِ.»

– «سِنُّكَ كَبِيرٌ بِمَا يَكْفِي كَيْ تَتَّخِذَ قَرَارَاتِكَ بِنَفْسِكَ يَا رُوبِنْسُونْ، فَلِمَ تَهْتَمُّ بِرَأْيِهِمْ؟ سَأَقْتَرِحُ عَلَيْكَ فِي الْحَالِ مَكَانًا عَلَى سَفِينَةِ وَالِدِي، فَلِمَ لَا تَأْتِي مَعَنَا وَحَسْبُ؟»

جَالَ فِي خَاطِرِي حِينَهَا: «أَجَلْ! هَا هِيَ فُرْصَتِي.»

– «حَسَنًا، أَنَا مُوَافِقٌ يَا جُونْ! شُكْرًا لَكَ، سَيُسْعِدُنِي الذَّهَابُ مَعَكَ!»

سَيَتَأَلَّمُ وَالِدَيَّ، لَكِنْ لَا يُمْكِنُ أَنْ أَقْضِيَ حَيَاتِي مُحَاوِلًا إِسْعَادَهُمَا. أَخِيرًا سَأُصْبِحُ بَحَّارًا!

غَادَرْنَا فِي سَاعَةٍ مُبَكِّرَةٍ مِنَ الصَّبَاحِ، وَلَمْ تَكَدِ الشَّمْسُ تُشْرِقُ حَتَّى بَدَأْنَا رِحْلَتَنَا. وَتَأَرْجَحَتِ السَّفِينَةُ فَوْقَ الْأَمْوَاجِ إِلَى أَعَلَى وَإِلَى أَسْفَلَ حَتَّى أُصِبْتُ بِدُوَارِ الْبَحْرِ. وَإِلَى جَانِبِ مَعِدَتِي الْمُضْطَرِبَةِ، تَمَلَّكَنِي الْخَوْفُ لِعُلُوِّ الْأَمْوَاجِ وَتَكَسُّرِهَا عَلَى جَانِبَيِ السَّفِينَةِ، وَفَيضِهَا أَحْيَانًا عَلَى السَّطْحِ.

اسْتَلْقَيْتُ عَلَى الْأُرْجُوحَةِ الشَّبَكِيَّةِ فِي حُجْرَتِي الصَّغِيرَةِ وَشَعَرْتُ بِالتَّعَاسَةِ، فَبَكَيْتُ وَبَكَيْتُ، وَشَعَرْتُ بِالذَّنْبِ لِرَحِيلِي عَنْ أُمِّي وَأَبِي عَلَى النَّحْوِ الَّذِي فَعَلْتُ، فَقَدْ كَانَا أَبَوَيْنِ صَالِحَيْنِ وَعَطُوفَيْنِ وَأَرَادَا لِيَ الْخَيْرَ، كُلَّ الْخَيْرِ، لَكِنِّي خَيَّبْتُ آمَالَهُمَا وَكَانَ هَذَا هُوَ عِقَابِي.

ازْدَادَتِ الْعَاصِفَةُ سُوءًا، وَازْدَادَتِ الْأَمْوَاجُ ارْتِفَاعًا، وَتَوَقَّعْتُ أَنْ تَبْتَلِعَنَا كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَمْوَاجِ بِالْكَامِلِ. وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ تَغُوصُ فِيهَا السَّفِينَةُ أَسْفَلَ مَوْجَةٍ أُخْرَى هَائِلَةٍ، كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهَا لَنْ تَرْتَفِعَ أَبَدًا مَرَّةً أُخْرَى. وَقُلْتُ لِنَفْسِي فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ: «إِذَا نَجَوْتُ بِأَيِّ حَالٍ، أُقْسِمُ أَنِّي سَأَذْهَبُ إِلَى بَلْدَتِي لِأُمِّي وَأَبِي، وَأَنْ أَكُونَ إِنْسَانًا صَالِحًا، وَسَوْفَ أَكُونُ ابْنًا بَارًّا بِهِمَا!»

بِحُلُولِ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، كَانَ الْبَحْرُ قَدْ هَدَأَ، وَبَدَا أَمْلَسَ كَالزُّجَاجِ، وَلَمْ يَعُدْ جَسَدِي يَشْعُرُ بِدُوَارِ الْبَحْرِ، وَاسْتَقْبَلَتْنِي الشَّمْسُ بِيَوْمٍ مُشْرِقٍ وَمُمْتِعٍ. كَمْ هُوَ الْأَمْرُ مُخْتَلِفٌ! صَعِدْتُ إِلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ مُغَادَرَتِنَا هَالْ، وَرَأَيْتُ جُونْ يَتَأَمَّلُ الْأُفُقَ، وَيَقُولُ: «تَبْدُو أَفْضَلَ حَالًا! لَا أُصَدِّقُ أَنَّكَ كُنْتَ مَذْعُورًا لِهَذَا الْحَدِّ مِنْ هَبَّةِ رِيَاحٍ بَسِيطَةٍ!»

قُلْتُ مُسْتَنْكِرًا: «هَبَّةُ رِيَاحٍ بَسِيطَةٌ! يَا لَهَا مِنْ عَاصِفَةٍ مُرِيعَةٍ!»

فَضَحِكَ جُونْ وَقَالَ: «إِنَّكَ لَمْ تَرَ شَيْئًا بَعْدُ. فَقَطْ انْتَظِرْ حَتَّى تَكُونَ فِي عُرْضِ الْبَحْرِ، وَحِينَهَا سَتَرَى كَيْفَ تَكُونُ الْعَاصِفَةُ!»

ضَحِكْتُ أَنَا الْآخَرُ وَقُلْتُ: «حَسَنًا، فَقَدْ تَعَامَلْتُ مَعَهَا بِأَيِّ حَالٍ، خَطِيرَةً كَانَتْ أَمْ غَيْرَ خَطِيرَةٍ، فَهَذِهِ أَوَّلُ عَاصِفَةٍ لِي فِي الْبَحْرِ.»

قَالَ لِي بِمَرَحٍ: «تَعَالَ يَا رُوبِنْسُونْ، هَيَّا بِنَا لِنَشْرَبَ بَعْضَ البنش!»

يَا لَلْمُتْعَةِ الَّتِي حَظِيتُ بِهَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ! ذَهَبَتْ عَنِّي جَمِيعُ مَخَاوِفِي فِي كَأْسٍ مِنَ البنش وَوَقْتٍ رَائِعٍ صَاخِبٍ. وَسُرْعَانَ مَا رَاحَ وَعْدُ اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ بِالْعَوْدَةِ لِبَلْدَتِي طَيَّ النِّسْيَانِ، فَمَا عُدْتُ خَائِفًا مِنْ أَنْ يَبْتَلِعَنِي الْبَحْرُ كُلِّيَّةً، وَلَمْ أَرْغَبْ فِي الْعَوْدَةِ لِدِيَارِي؛ لَقَدْ خُلِقْتُ لِحَيَاةِ الْبِحَارِ.

الفصل الثالث

عَاصِفَةٌ عَاتِيَةٌ

فِي يَوْمِنَا السَّادِسِ فِي الْبَحْرِ، اضْطُرِرْنَا أَنْ نَرْسُوَ فِي يارماوث بِسَبَبِ الرِّيَاحِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي تَهُبُّ فِي الِاتِّجَاهِ الْمُعَاكِسِ. وَكَانَ هُنَاكَ سُفُنٌ عَدِيدَةٌ مُنْتَظِرَةٌ بِالْمِثْلِ.

وَبَعْدَ قُرَابَةِ أُسْبُوعٍ، هَبَّتِ الرِّيَاحُ أَخِيرًا فِي الِاتِّجَاهِ الْمُوَاتِي سلَنَا، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ شَدِيدَةً لِلْغَايَةِ، وَاعْتَقَدَ وَالِدُ جون — الْقُبْطَانُ — أَنَّهُ لا بَأْسَ فِي أَنْ نُبْحِرَ، لَكِنَّ الرِّجَالَ لَمْ يَقْتَنِعُوا بِرأْيِهِ.

شَرَعَ الْعُمَّالُ جَمِيعُهُمْ فِي إِنْزَالِ الْأَشْرِعَةِ الْعَالِيَةِ مِنَ الصَّوَارِي الْعُلْيَا، وَبَذَل أَفْرَادُ الطَّاقَمِ قُصَارَى جُهْدِهِمْ لِيَتَأَكَّدُوا مِنْ تَأْمِينِ الْحَمُولَةِ وَالْمُعَدَّاتِ وَرَصِّهَا عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، فَلَمْ نُرِدْ أَنْ يَطِيرَ أَيُّ شَيْءٍ بفعل الرِّيَاحِ. وَتَأَكَّدَ أَفْرَادُ الطَّاقَمِ أَنَّ السَّفِينَةَ سَتَسِيرُ بِسَلَاسَةٍ قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ فَوْقَ الْأَمْوَاجِ.

بَدَأْنَا رِحْلَتَنَا بَاكِرًا ذَلِكَ الصَّبَاحَ، وَبِحُلُولِ الظَّهِيرَةِ انْقَلَبَ الْبَحْرُ ضِدَّنَا. كَانَتْ عَاصِفَةٌ عَظِيمَةٌ وَمُخِيفَةٌ. رَأَيْتُ الرُّعْبَ وَالذُّهُولَ فِي أَعْيُنِ أَفْرَادِ الطَّاقَمِ، وَظَلَّ وَالِدُ جون يَرُوحُ وَيَجِيءُ مِنْ وَإِلَى حُجْرَتِهِ، وَسَمِعْتُهُ يُغَمْغِمُ قَائِلًا: «سَنَضِيعُ كُلُّنَا.»

لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَ مَدَى فَزَعِي؛ تَمَايَلَتِ السَّفِينَةُ تَمَايُلًا شَدِيدًا وَهِيَ تَجْرِي بِنَا فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ. وَكُلَّ بِضْعِ دَقَائِقَ تَرْتَطِمُ مَوْجَةٌ جَدِيدَةٌ بِالسَّفِينَةِ، وَلَطَمَتِ الْأَمْوَاجُ الْعَنِيفَةُ سُفُنًا أُخْرَى عَدِيدَةً مِنْ حَوْلِنَا.

كُنْتُ أَرْقُبُ الْبَحَّارَةَ الْآخَرِينَ وَهُمْ يَعْمَلُونَ بِجِدٍّ عَلَى إِنْزَالِ صَوَارِيهِمْ كَيْ لَا تَجْرِفَهَا الرِّيَاحُ، فَإِذَا أُنْزِلَتِ الصَّوَارِي سَاعَدَ ذَلِكَ فِي مَنْعِ الْأَمْوَاجِ مِنْ دَفْعِ السَّفِينَةِ إِلَى تَحْتِ الْمَاءِ.

وَفِي الْبِدَايَةِ، تَرَدَّدَ الْقُبْطَانُ فِي فِعْلِ ذَلِكَ لِأَنَّ حَمُولَتَنَا مِنَ الْبَضَائِعِ كَانَتْ ثَقِيلَةً، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَنْعَدِمَ تَوَازُنُنَا. بَعْدَ ذَلِكَ، ازْدَادَ الْبَحْرُ اضْطِرَابًا وَازْدَادَتِ الْعَاصِفَةُ عُتُوًّا.

وَسُرْعَانَ مَا اقْتَنَعَ الْقُبْطَانُ، فَصَاحَ: «نَكِّسُوا الْأَشْرِعَةَ! أَنْزِلُوهَا مَعَ الصَّوَارِي! بِسُرْعَةٍ يَا شَبَابُ، وَإِلَّا سَنَضِيعُ كُلُّنَا!» وَدَعَوْنَا، لَعَلَّ مَا فَعَلْنَاهُ يَكُونُ جَدِيرًا بِإِنْقَاذِ أَرْوَاحِنَا. وَكَانَتْ سُفُنٌ أُخْرَى عَدِيدَةٌ لَا زَالَتْ تُوَاجِهُ الصِّعَابَ فِي الْعَاصِفَةِ، بَيْنَمَا غَرِقَتْ بِالْفِعْلِ إِحْدَى السُّفُنِ الَّتِي كَانَتْ تَتَقَدَّمُنَا حِينَهَا.

كَانَ الْأَسْوَأُ فِي انْتِظَارِنَا. تَجَمَّعَ الرِّجَالُ بِالْقُرْبِ مِنِّي فِي الْحُجْرَةِ قَائِلِينَ إِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا عَاصِفَةً مِثْلَ هَذِهِ قَطُّ. فَدَعَوُا اللهَ أَنْ يُنَجِّيَهُمْ، وَرَجَوْهُ أَنْ يُنْقِذَهُمْ. لَكِنَّ الْعَاصِفَةَ لَمْ تَرْفُقْ بِهِمْ، حَتَّى الْقُبْطَانُ ظَنَّ أَنَّ الْمَكَانَ الْوَحِيدَ الَّذِي قَدْ نَرْسُو فِيهِ هُوَ قَاعُ الْبَحْرِ.

وَفِي اللَّحْظَةِ الَّتِي اعْتَقَدْنَا فِيهَا أَنَّ الْأُمُورَ وَصَلَتْ لِأَسْوَأِ حَدٍّ، جَاءَ رَجُلٌ مُهَرْوِلًا مِنْ أَسْفَلَ وَصَاحَ أَنَّ سَفِينَتَنَا قَدْ أَصَابَهَا خَرْقٌ، وَأَنَّ ارْتِفَاعَ الْمِيَاهِ فِي مَخْزَنِ السَّفِينَةِ بَلَغَ أَرْبَعَ أَقْدَامٍ! اسْتُدْعِيَ الْعُمَّالُ جَمِيعُهُمْ إِلَى أَسْفَلِ سَطْحِ السَّفِينَةِ لِتَفْرِيغِ الْمَاءِ، فَنَزَلْتُ إِلَى أَسْفَلَ وَبَذَلْتُ قُصَارَى جُهْدِي.

بَدَتِ الْمِيَاهُ كَأَنَّهَا هِيَ الطَّرَفُ الْفَائِزُ فِي الْمَعْرَكَةِ، فَمَعَ أَنَّ الْعَاصِفَةَ هَدَأَتْ قَلِيلًا، إِلَّا أَنَّ الْمَخْزَنَ ظَلَّ مُمْتَلِئًا بِالْمِيَاهِ. وَأَدْرَكَ الْقُبْطَانُ أَنَّنَا لَنْ نَبْلُغَ الْمِينَاءَ التَّالِيَ أَبَدًا، فَأَمَرَ أَفْرَادَ الطَّاقَمِ بِالْبَدْءِ فِي إِطْلَاقِ مَدَافِعِنَا لِطَلَبِ النَّجْدَةِ.

سَمِعْتُ أَحَدَ الْبَحَّارَةِ يَصِيحُ: «انْتَظِرُوا! هَا قَدْ أَتَى قَارِبُ إِنْقَاذٍ!» وَلَكِنَّ الْأَمْوَاجَ جَعَلَتْ وُصُولَ الْقَارِبِ إِلَيْنَا شِبْهَ مُسْتَحِيلٍ. وَكَانَتْ أَمَامَنَا فُرْصَةٌ وَاحِدَةٌ: أَنْ نَقْذِفَ إِلَيْهِمْ بِحَبْلٍ، حَتَّى نَظَلَّ عَلَى قَدْرٍ مِنَ الثَّبَاتِ يُتِيحُ الِانْتِقَالَ إِلَيْهِمْ. فَرَاقَبْنَا جَمِيعًا نَائِبَ الْقُبْطَانِ وَهُوَ يُلْقِي الْحَبْلَ بِحِرْصٍ بِاتِّجَاهِ الْبَحْرِ الْمُمْتَدِّ، وَيَا لَهُ مِنْ حَظٍّ! فَقَدْ أَمْسَكُوا بِالْحَبْلِ! وَتَدَافَعْنَا نَتَزَاحَمُ بِالْمَنَاكِبِ لِنَعْلُوَ إِلَى سَطْحِ الْقَارِبِ.

مَعَ كُلِّ مَرَّةٍ يَصِلُ فِيهَا قَارِبُ الْإِنْقَاذِ الصَّغِيرُ إِلَى ذِرْوَةِ مَوْجَةٍ، كُنْتُ أَخْشَى عَلَى حَيَاتِي؛ إِذْ كَانَتِ الْأَمْوَاجُ عَالِيَةً جِدًّا! وَكُنَّا نَحْنُ صِغَارَ الْحَجْمِ جِدًّا! وَاسْتَمَرَّ الرِّجَالُ الشُّجْعَانُ فِي التَّجْدِيفِ، فَقَدْ حَمَلُوا أَرْوَاحَهُمْ عَلَى أَكُفِّهِمْ لِمُسَاعَدَتِنَا، وَكَانُوا عَازِمِينَ عَلَى إِنْقَاذِنَا.

وَبَعْدَ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً فَقَطْ مِنْ إِنْقَاذِنَا، شَاهَدْنَا سَفِينَتَنَا — وَالرُّعْبُ مِلْءُ قُلُوبِنَا — وَهِيَ تَنْقَلِبُ وَتَغُوصُ فِي الْعُمْقِ. وَبَعْدَمَا ظَنَنْتُ أَنِّي سَأَنْتَظِرُ دَهْرًا كَامِلًا حَتَّى أَرَى

الشَّاطِئَ، تَمَكَّنْتُ أَخِيرًا مِنْ رُؤْيَتِهِ، حَيْثُ يَعْدُو رِجَالٌ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ مُنْتَظِرِينَ وُصُولَنَا، وَمُحَاوِلِينَ الْمُسَاعَدَةَ إِنْ أَمْكَنَهُمْ ذَلِكَ.

رَسَوْنَا بِأَمَانٍ! وَانْطَلَقَتْ صَيْحَاتُ الْمَرَحِ وَالتَّهْلِيلِ لَحْظَةَ اصْطِدَامِ الْقَارِبِ بِالشَّاطِئِ الرَّمْلِيِّ. وَأَلْقَى رِجَالٌ حَوْلَنَا مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ بِالْبَطَاطِينِ عَلَيْنَا كَيْ لَا نَشْعُرَ بِالْبَرْدِ. وَشَكَرَ قُبطَانُنَا الرِّجَالَ الشُّجْعَانَ الَّذِينَ أَنْقَذُونَا شُكْرًا حَارًّا.

سَارَ طَاقَمُنَا كُلُّهُ بِبُطْءٍ عَائِدًا إِلَى يارماوث، وَرُوحُنَا الْمَعْنَوِيَّةُ فِي الْحَضِيضِ لِأَنَّنَا فَقَدْنَا سَفِينَتَنَا. وَلَكِنَّ طِيبَةَ النَّاسِ فِي يارماوث كَانَ لَهَا دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي التَّخْفِيفِ عَنَّا، فَقَدْ دَبَّرَ الْقَاضِي الْمَحَلِّيُّ سَرِيرًا دَافِئًا لِكُلِّ فَرْدٍ مِنَّا لِقَضَاءِ اللَّيْلِ، وَكَانَ الْعَدِيدُ مِنْ أَصْحَابِ الْمَتَاجِرِ طَيِّبِينَ، حَتَّى إِنَّهُمْ سَاعَدُونَا فِي الْعَوْدَةِ إِلَى لَنْدَنَ أَوْ هَال.

رَاوَغَنِي شَيْءٌ مِنَ الْحَنِينِ لِلْعَوْدَةِ إِلَى هال، وَمِنْ هُنَاكَ كَانَ يُمْكِنُنِي السَّفَرُ إِلَى يورك لِأَرَى وَالِدَيَّ، لَكِنَّ عَاطِفَتِي الْكُبْرَى كَانَتْ لَا تَزَالُ مُنْجَرِفَةً نَحْوَ خَوْضِ مُغَامَرَةٍ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَحْسِمَ أَمْرِي: هَلْ يَنْبَغِي لِي الْبَقَاءُ فِي يارماوث وَالْعُثُورُ عَلَى سَفِينَةٍ جَدِيدَةٍ؟ أَمْ عَلَيَّ الْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ؟

فِي يَوْمِيَ الثَّالِثِ فِي يارماوث، الْتَقَيْتُ صَدِيقِي جون صُدْفَةً وَهُوَ يَسِيرُ مَعَ وَالِدِهِ، وَبَدَا عَلَى كِلَيْهِمَا الضِّيقُ وَالِانْزِعَاجُ.

قَالَ جون: «أَبِي، هَذَا هُوَ روبنسون. أَتَذْكُرُ أَنَّنِي أَخْبَرْتُكَ كَيْفَ صَاحَبَنَا لِيَعِيشَ حَيَاةَ الْبَحَّارِ. إِنَّهُ يَرْغَبُ فِي أَنْ يُمْضِيَ حَيَاتَهُ فِي الْبَحْرِ.»

نَظَرَ إِلَيَّ الْقُبْطَانُ بِتَأَمُّلٍ وَقَالَ: «روبنسون، اعْتَبِرْ هَذِهِ إِشَارَةً، وَعُدْ إِلَى بَلَدِكَ، فَحَيَاةُ الْبَحْرِ لَيْسَتْ لَكَ.»

سَأَلْتُهُ: «لَكِنْ يَا سَيِّدِي، هَلْ غَيَّرَتْ فِكْرَكَ هَذِهِ الْعَاصِفَةُ بِالْمِثْلِ؟ هَلْ سَتَتَوَقَّفُ عَنِ الْإِبْحَارِ بِسَبَبِهَا؟»

أَجَابَ الْقُبطَانُ: «إِنَّ حَيَاتِي مُخْتَلِفَةٌ؛ هَذِهِ هِيَ مِهْنَتِي، وَمِنْ وَاجِبِي أَنْ أَعْمَلَ بَحَّارًا. أَمَّا أَنْتَ، فَمَا حَدَثَ كَانَ تَجْرِبَةً أَوِ اخْتِبَارًا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ لَمْ يُحَالِفْكَ التَّوْفِيقُ. فَلَوْ أَصْرَرْتَ عَلَى حَيَاةِ الْبَحْرِ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ مَا قَدْ يَحْدُثُ لَكَ.»

تَحَدَّثَ الْقُبْطَانُ بِجِدِّيَّةٍ عَنِ الْحَظِّ الطَّيِّبِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّنِي أُدَاعِبُ الْمَوْتَ بِاسْتِمْرَارِي فِي السَّيْرِ وَرَاءَ أَحْلَامِي. وَانْجَرَفَ بِكَلَامِهِ بَعِيدًا حَتَّى قَالَ إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ النَّحْسِ كَانَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ فِعْلِي!

وَكَانَتْ آخِرُ كَلِمَاتٍ قَالَهَا لِي: «روبنسون، يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَأَكَّدَ مِنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ؛ إِذَا تَجَاهَلْتَ رَغَبَاتِ وَالِدِكَ، فَسَوْفَ تَلْقَى خَيْبَةَ الْأَمَلِ وَالنَّكَبَاتِ.»

أَوْمَأْتُ بِرَأْسِي وَسِرْتُ مُبْتَعِدًا. وَلَمْ أَرَ جون أَوْ وَالِدَهُ قَطُّ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ. وَبَيْنَمَا كُنْتُ أَسِيرُ، فَكَّرْتُ مَلِيًّا فِيمَا قَالَهُ: فَمَاذَا إِنْ كَانَتِ الْعَاصِفَةُ إِشَارَةً؟ مَاذَا لَوْ كَانَتْ تَعْنِي أَنَّنِي لَا يَنْبَغِي لِي مُطْلَقًا أَنْ أَصِيرَ بَحَّارًا؟

وَقُلْتُ لِنَفْسِي: «رُبَّمَا يَنْبَغِي لِي الِاكْتِفَاءُ بِإِحْصَاءِ النِّعَمِ الَّتِي أَمْلِكُهَا وَالْعَوْدَةُ لِبَلَدِي. فَمَاذَا لَوْ كَانَ عَلَى صَوَابٍ وَتُلَاحِقُنِي لَعْنَةٌ؟» لَكِنَّنِي لَمْ أَسْتَطِعِ الْعَوْدَةَ لِلْبَيْتِ مُجَرْجِرًا أَذْيَالَ الْفَشَلِ، فَلَنْ يَفْخَرَ بِي أَبِي أَبَدًا. لِذَا ابْتَلَعْتُ شُكُوكِي وَسَافَرْتُ إِلَى لَنْدَنَ.

الفصل الرابع

رِحْلَةٌ إِلَى أَفْرِيقْيَا

تَعَافَى حَظِّيَ الْعَاثِرُ فِي لَنْدَنَ. الْتَقَيْتُ بِصُحْبَةٍ حَسَنَةٍ وَقَابَلْتُ الْقُبْطَانَ كولبر، الَّذِي كَانَ قَدْ عَادَ لِتَوِّهِ مِنْ أَفْرِيقْيَا. وَكَانَتْ رِحْلَتُهُ الْبَحْرِيَّةُ إِلَى أَفْرِيقْيَا نَاجِحَةً إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ عَلَى وَشْكِ الْخُرُوجِ فِي رِحْلَةٍ أُخْرَى. تَقَاسَمْنَا الْعَدِيدَ مِنَ الْوَجَبَاتِ وَدَار بَيْنَنَا عَدَدٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ الرَّائِعَةِ. وَعِنْدَمَا عَلِمَ الْقُبْطَانُ كولبر بِرَغْبَتِي فِي رُؤْيَةِ الْعَالَمِ، قَرَّرَ أَنْ يَصْحَبَنِي مَعَهُ.

كَانَ الْقُبْطَانُ كولبر رَجُلًا نَزِيهًا وَعَادِلًا؛ فَلَمْ يَكْتَفِ بِاسْتِئْجَارِي فِي رِحْلَتِهِ الْبَحْرِيَّةِ، بَلْ شَمِلَنِي بِرِعَايَتِهِ؛ فَسَاعَدَنِي فِي شِرَاءِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُمْكِنُنِي الْمُتَاجَرَةُ بِهَا لِأَتَمَكَّنَ مِنْ جَنْيِ رِبْحٍ صَغِيرٍ. وَبَيْنَمَا كُنَّا مُبْحِرِينَ، عَلَّمَنِي أَيْضًا الْحِسَابَ وَالْمِلَاحَةَ وَالْعَدِيدَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى الَّتِي يَحْتَاجُ الْبَحَّارَةُ إِلَى تَعَلُّمِهَا، وَأَسْدَى لِي نَصَائِحَ رَائِعَةً.

تَسَبَّبَتِ الْحَرَارَةُ الْمُرْتَفِعَةُ عَلَى الْأَرَاضِي شَدِيدَةِ الْقُرْبِ مِنْ خَطِّ الِاسْتِوَاءِ فِي إِصَابَتِي بِحُمَّى شَدِيدَةٍ. فَفِي مُعْظَمِ الْوَقْتِ الَّذِي قَضَيْنَاهُ فِي الْجَنُوبِ، كُنْتُ مَرِيضًا. وَبَعْدَ مَا يُقَارِبُ الْعَامَ فِي الْبَحْرِ، عُدْنَا إِلَى لَنْدَنَ. وَلَمْ تَكُنِ الْعَوْدَةُ سَالِمًا الشَّيْءَ الطَّيِّبَ الْوَحِيدَ الَّذِي خَرَجْتُ بِهِ مِنْ رِحْلَتِي، بَلْ عَرَفْتُ أَنَّنِي تَاجِرٌ مَاهِرٌ، وَجَنَيْتُ رِبْحًا وَفِيرًا مِنْ بَضَائِعِي.

وَبِالرُّغْمِ مِنْ تَحَسُّنِ حَالَتِي الصِّحِّيَّةِ لَدَى عَوْدَتِنَا لِلْأَجْوَاءِ الْأَكْثَرِ بُرُودَةً، فَقَدْ أُصِيبَ الْقُبْطَانُ كولبر بِالْحُمَّى نَفْسِهَا الَّتِي أَصَابَتْنِي لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَحْظُوظًا بِمَا يَكْفِي؛ إِذْ تُوُفِّيَ بَعْدَ عَوْدَتِنَا بِقَلِيلٍ. وَافْتَقَدْتُهُ أَيَّمَا افْتِقَادٍ، فَقَدْ كَانَ صَدِيقًا وَفِيًّا وَمُعَلِّمًا مُخْلِصًا.

أَقْنَعَنِي نَجَاحِي كَتَاجِرٍ بِأَنَّنِي أَصَبْتُ الِاخْتِيَارَ، فَتَجَاهَلْتُ نَصِيحَةَ وَالِدِ جون، وَحَاوَلْتُ أَلَّا يَعْتَصِرَنِيَ الْحُزْنُ عَلَى الْقُبْطَانِ كولببر. وَعِنْدَمَا عَرَضَ عَلَيَّ نَائِبُ الْقُبْطَانِ مَكَانًا عَلَى سَفِينَةٍ تُوشِكُ عَلَى الْإِبْحَارِ إِلَى أَفْرِيقْيَا، انْتَهَزْتُ الْفُرْصَةَ لِلذَّهَابِ مَعَ الْمُبْحِرِينَ، وَتَرَكْتُ مُعْظَمَ ثَرْوَتِي حَدِيثَةِ الْعَهْدِ مَعَ أَرْمَلَةِ كولببر لِحِفْظِهَا، وَانْطَلَقْتُ فِي مُغَامَرَةٍ أُخْرَى.

الفصل الخامس

قَرَاصِنَةٌ!

قَدْرَ مَا تَغَيَّرَ حَظِّي لِلْأَفْضَلِ عِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى لَنْدَنَ، أَصْبَحَ الْعَكْسُ بِالْعَكْسِ لَاحِقًا؛ فَسُرْعَانَ مَا أَصْبَحَتْ رِحْلَتِي الْبَحْرِيَّةُ الثَّانِيَةُ إِلَى أَفْرِيقْيَا أَسْوَأَ رِحْلَةٍ لِي حَتَّى حِينِهِ. وَسُرْعَانَ مَا عَلِمْتُ أَنَّ هُنَاكَ مَا هُوَ أَسْوَأُ بِكَثِيرٍ مِنْ هَبَّةِ رِيحٍ وَالْإِنْقَاذِ في اللحظة الأخيرة! فَبَيْنَمَا شَقَّتْ سَفِينَتُنَا طَرِيقَهَا إِلَى جُزُرِ الْكَنَارِي، بَاغَتَتْنَا سَفِينَةُ قَرَاصِنَةٍ.

طَارَدُونَا لِسَاعَاتٍ مُنْطَلِقِينَ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ، وَعِنْدَمَا لَحِقُوا بِنَا، كَانَتْ فُرْصَتُنَا الْوَحِيدَةُ لِلْبَقَاءِ هِيَ الْقِتَالَ، فَجَهَّزْنَا بَنَادِقَنَا لِلْمَعْرَكَةِ. واقتربت سَفِينَةُ الْقَرَاصِنَةِ من مُؤَخَّرَةِ سَفِينَتِنَا. اتَّخَذْنَا الْمُخَاطَرَةَ وَأَطْلَقْنَا النَّارَ مِنْ بَنَادِقِنَا كُلِّهَا مُبَاشَرَةً عَلَى سَفِينَةِ الْمُحْتَالِينَ، وَرَدُّوا عَلَى نِيرَانِنَا بِمَدَافِعِهِمُ الْكَبِيرَةِ.

وَبَدَأَ جَمِيعُ الْقَرَاصِنَةِ فِي إِطْلَاقِ النَّارِ مِنْ بَنَادِقِهِمْ بِدَوْرِهِمْ، لَكِنْ لَمْ تُصِبْ أَحَدًا مِنْ رِجَالِنَا أَيٌّ مِنْ طَلَقَاتِهِمْ!

لَمْ يَدُمْ هَذَا النَّصْرُ كَثِيرًا، وَخِلَالَ دَقَائِقَ كَانَ مَا يَقْرُبُ مِنَ السِّتِّينَ قُرْصَانًا عَلَى سَطْحِ سَفِينَتِنَا. قَطَعُوا حِبَالَنَا بِسُيُوفِهِمْ، ثُمَّ مَزَّقُوا أَشْرِعَتَنَا، لَكِنَّنَا أَجْبَرْنَاهُمْ عَلَى التَّقَهْقُرِ قَدْرَ اسْتِطَاعَتِنَا مُسْتَخْدِمِينَ بَنَادِقَنَا وَسُيُوفَنَا (وَأَبْعَدْنَاهُمْ عَنْ سَطْحِ سَفِينَتِنَا مَرَّتَيْنِ!) لَكِنَّ النَّصْرَ لَمْ يَبْدُ حَلِيفًا لَنَا، وَاسْتَسْلَمْنَا قَبْلَ أَنْ تُزْهَقَ أَيُّ نَفْسٍ.

أَخَذَنَا الْقَرَاصِنَةُ عَلَى سَفِينَتِهِمْ أَسْرَى، وَأَبْحَرْنَا إِلَى مِينَاءِ سلا، عَلَى السَّاحِلِ الشَّمَالِي لِأَفْرِيقْيَا. وَبِيعَ مُعْظَمُ رِجَالِ السَّفِينَةِ فِي الْبِلَادِ عَبِيدًا. وَأُعْجِبَ بِي قُبْطَانُ الْقَرَاصِنَةِ لِشَبَابِي وَفِطْنَتِي؛ فَقَرَّرَ الِاحْتِفَاظَ بِي.

وَبِذَلِكَ، فِي ضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ، تَحَوَّلْتُ مِنْ تَاجِرٍ إِلَى عَبْدٍ، فَكُنْتُ فِي مُنْتَهَى التَّعَاسَةِ. تَرَدَّدَتْ كَلِمَاتُ وَالِدِي فِي ذِهْنِي، وَأَدْرَكْتُ أَنَّنِي سَأَظَلُّ أَبَدًا عَلَى هَذَا الْحَظِّ الْعَاثِرِ، فَرَغْبَتِي الْأَنَانِيَّةُ لِمُغَادَرَةِ دِيَارِي لَمْ يَكُنْ لِيُقَابِلَهَا شَيْءٌ سِوَى التَّعَاسَةِ.

قَضَيْتُ أَيَّامًا طَوِيلَةً أَعْمَلُ فِي حَدِيقَةِ سَيِّدِي، وَكَذَلِكَ أَقُومُ بِالْعَدِيدِ مِنَ الْمَهَامِّ الْمَنْزِلِيَّةِ، لَكِنَّ قَلْبِي وَجَسَدِي تَاقَا إِلَى الْعَوْدَةِ لِلْبَحْرِ، حَيْثُ تَتَوَفَّرُ لِي عَلَى الْأَقَلِّ فُرْصَةٌ لِلْهَرَبِ، لَكِنَّ السَّيِّدَ لَمْ يَأْخُذْنِي قَطُّ إِلَى رِحْلَاتِهِ لِلصَّيْدِ، بَلْ كَانَ يَتْرُكُنِي لِلْعَمَلِ.

شَعَرْتُ أَنَّ كُلَّ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَيَّ أَطْوَلُ مِنْ سَابِقِهِ، وَمَرَّتْ سَنَتَانِ بِبُطْءٍ. لَيْلَ نَهَارَ لَمْ أَحْلُمْ بِشَيْءٍ سِوَى الْهَرَبِ. وَدُونَ أَصْدِقَاءِ، لَمْ يَتَبَقَّ لِي سِوَى أَفْكَارِي لِتُؤْنِسَ وَحْدَتِي. كَانَ الْعَمَلُ شَاقًّا وَالشَّمْسُ مُحْرِقَةً. فَهَلْ سَأَقْضِي بَقِيَّةَ حَيَاتِي عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ؛ عَالِقًا فِي بَلَدٍ غَرِيبٍ، عَبْدًا لِسَيِّدٍ بَغِيضٍ؟

الفصل السادس

فُرْصَةُ الْهَرَبِ

أَخِيرًا، فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ صَحِبَنِي سَيِّدِي أَنَا وَعَبْدًا آخَرَ، يُدْعَى إِسْمَاعِيلَ، لِصَيْدِ السَّمَكِ مَعَهُ، لَكِنَّ الْجَوَّ تَغَيَّرَ سَرِيعًا فِي غَيْرِ صَالِحِنَا، فَعَلِقْنَا فِي ضَبَابٍ كَثِيفٍ، وَعِنْدَمَا تَمَكَّنَّا مِنَ الرُّؤْيَةِ بِوُضُوحٍ، أَبْحَرْتُ أَنَا وَإِسْمَاعِيلُ بَعِيدًا بَدَلًا مِنَ الْعَوْدَةِ لِلْمَنْزِلِ. وَبَعْدَمَا لَاقَيْنَا بَعْضَ الْمَشَقَّةِ، جَدَّفْنَا بِأَمَانٍ عَائِدَيْنِ إِلَى الشَّاطِئِ.

حَدَثَ أَمْرَانِ بَعْدَ ذَلِكَ جَعَلَانِي أُفَكِّرُ فِي كَيْفِيَّةِ الْهُرُوبِ؛ الْأَوَّلُ: كَانَ سَيِّدِي قَدِ اسْتَعَانَ بِنَجَّارٍ لِإِصْلَاحِ قَارِبِ الصَّيْدِ، فَأَصْبَحَ حِينَئِذٍ أَكْثَرَ اسْتِعْدَادًا لِخَوْضِ الْبِحَارِ فِي رِحْلَاتٍ أَطْوَلَ.

وَجَالَتْ بِخَاطِرِي الْفِكْرَةُ: «إِنَّ الْقَارِبَ الْجَدِيدَ مَتِينٌ، وَيُمْكِنُنِي الِابْتِعَادُ عَلَى مَتْنِهِ عَنْ مِينَاءِ سلا إِذَا أُتِيحَتْ لِيَ الْفُرْصَةُ!» يَا لَلْحَظِّ الْحَسَنِ الَّذِي جَعَلَ حَادِثَتَنَا تُخِيفُ سَيِّدِي!

بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأُسْبُوعِ نَفْسِهِ، خَطَّطَ سَيِّدِي لِإِقَامَةِ أُمْسِيَّةٍ مُمْتِعَةٍ عَلَى الْقَارِبِ لِبَعْضِ الْأَصْدِقَاءِ، وَكَانَ هَذَا هُوَ الْأَمْرَ الثَّانِيَ الَّذِي تَصَادَفَ وُقُوعُهُ لِمُسَاعَدَتِي فِي الْهَرَبِ. وَأَمَرَنِي بِتَخْزِينِ كَمِّيَّاتٍ مِنَ الْمُؤَنِ، وَكَذَلِكَ كَانَ عَلَيَّ تَلْمِيعُ الْقَارِبِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ، وَتَزْيِينُهُ مِنْ أَجْلِ الْحَفْلِ.

وَفِي الْيَوْمِ اللَّاحِقِ، وَقَبْلَ عَشْرِ دَقَائِقَ فَقَطْ مِنَ الْمَوْعِدِ الْمُحَدَّدِ لِمُغَادَرَتِنَا، جَاءَ السَّيِّدُ وَصَعِدَ إِلَى الْمَرْكَبِ بِخُطُوَاتٍ ثَقِيلَةٍ. وَكَانَ غَاضِبًا! وَبَدَا لِي أَنَّ أَصْدِقَاءَهُ عَزَفُوا عَنْ قَضَاءِ الْيَوْمِ فِي الْبَحْرِ، فَأَمَرَنِي بِاصْطِحَابِ إِسْمَاعِيلَ وَقَصُورِي، وَهُوَ عَبْدٌ آخَرُ، لِلصَّيْدِ. فَحَتَّى

لَوْ لَمْ يَذْهَبُوا لِلْبَحْرِ، فَلَا يَزَالُ السَّيِّدُ يُرِيدُ أَنْ يُطْعِمَ أَصْدِقَاءَهُ سَمَكًا طَازَجًا فِي الْعَشَاءِ الْخَاصِّ.

فَكَّرْتُ بِحَمَاسٍ: «تِلْكَ هِيَ فُرْصَتِي! يُمْكِنُنِي الْهَرَبُ!» لَكِنْ كَيْفَ؟ أَقْنَعْتُ إِسْمَاعِيلَ أَنَّنَا يَجِبُ أَلَّا نَأْكُلَ طَعَامَ السَّيِّدِ، لِذَا اخْتَزَنَ فِي الْقَارِبِ مُؤَنًا أَكْثَرَ.

وَبَيْنَمَا كَانَ هُوَ بَعِيدًا يُعِدُّ لَنَا الْأَغْرَاضَ، أَسْرَعْتُ فِي إِحْضَارِ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى الَّتِي قَدْ نَحْتَاجُ إِلَيْهَا: شُمُوعٍ وَمِنْشَارٍ وَمِطْرَقَةٍ وَبَعْضِ خُيُوطِ الْقُنَّبِ وَفَأْسٍ.

وَبَعْدَهَا، تَحَايَلْتُ عَلَى قَصُورِي لِيَجِدَ لَنَا بَعْضَ الْبَارُودِ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّنَا يُمْكِنُنَا صَيْدُ بَعْضِ الطُّيُورِ الْبَرِّيَّةِ لِنَتَعَشَّى بِهَا. فَقَالَ لِي مُبْتَسِمًا: «نَعَمْ، يَا لَهَا مِنْ فِكْرَةٍ رَائِعَةٍ بِالْفِعْلِ!»

وَبَعْدَ بِضْعِ دَقَائِقَ، كُنَّا مُسْتَعِدِّينَ، وَأَبْحَرَ ثَلَاثَتُنَا بِاتِّجَاهِ الْمِينَاءِ. وَتَغَلَّبْنَا عَلَى الصِّعَابِ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، وَبَعْدَهَا نَكَّسْنَا أَشْرِعَتَنَا لِلصَّيْدِ. فِي هَذَا الْيَوْمِ، كُانَتِ الرِّيَاحُ تَهُبُّ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَالشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ، وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ تَأْتِيَ الرِّيَاحُ مِنَ الْجَنُوبِ؛ فَبِهَا، يُمْكِنُنِي الْإِبْحَارُ إِلَى إِسْبَانْيَا، لَكِنَّنِي لَمْ أَقْنَطْ؛ فَأَيُّ رِيَاحٍ كَانَتْ سَتَحْمِلُنِي بَعِيدًا عَنْ سِجْنِيَ الَّذِي أَقْبَعُ فِيهِ عَلَى هَذِهِ الْأَرَاضِي، فَكُنْتُ فَرِحًا لِمُجَرَّدِ التَّفْكِيرِ فِي الْهُرُوبِ إِلَى الْحُرِّيَّةِ.

وَكَانَ الْهُرُوبُ إِمَّا أَنْ يَحْدُثَ حِينَهَا أَوْ لَا يَحْدُثَ أَبَدًا.

قُلْتُ: «إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ الْمِيَاهَ أَصْبَحَتْ بَارِدَةً هُنَا، فَأَنَا لَا أَصْطَادُ أَيَّ شَيْءٍ، دَعْنَا نُبْحِرُ أَبْعَدَ قَلِيلًا.»

أَوْمَأَ بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا وَرَفَعَ الْأَشْرِعَةَ، وَسِرْنَا فَرْسَخًا آخَرَ فِي دَاخِلِ الْبَحْرِ. وَقَبْلَ أَنْ يُسْقِطَ الْمِرْسَاةَ مُبَاشَرَةً، اقْتَرَبْتُ مِنْهُ مِنَ الْخَلْفِ وَقَذَفْتُ بِهِ مِنْ فَوْقِ سَطْحِ الْمَرْكَبِ. فَصَرَخَ إِسْمَاعِيلُ وَصَاحَ: «دَعْنِي أَعُودُ إِلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ! مَاذَا تَفْعَلُ يَا روبنسون؟ سَوْفَ تَتَسَبَّبُ بِمَقْتَلِكَ!»

فَأَجَبْتُهُ صَائِحًا: «أَنْتَ سَبَّاحٌ مَاهِرٌ. عُدْ إِلَى الشَّاطِئِ يَا إِسْمَاعِيلُ، أَمَّا أَنَا فَسَأَهْرُبُ، وَلَا سَبِيلَ أَمَامَكَ لِإِيقَافِي!» فَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ، وَقَبِلَ مَصِيرَهُ، وَبَدَأَ يَسْبَحُ.

وَقَفَ قَصُورِي عَلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ مُرْتَعِشًا، فَكَانَ خَائِفًا مِنْ أَنْ أَقْذِفَهُ مِنْ عَلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ هُوَ الْآخَرَ.

– «قَصُورِي، لَا بُدَّ أَنْ تُقْسِمَ عَلَى مُسَاعَدَتِي، وَإِلَّا سَتَلْحَقُ بِإِسْمَاعِيلَ فِي الْبَحْرِ!» لَمْ يَكُنْ بِمَقْدُورِ قَصُورِي أَنْ يَسْبَحَ بِهَذِهِ الْمَهَارَةِ، لِذَا قَبِلَ بِشُرُوطِي عَلَى الْفَوْرِ.

عَلَى مَدَى السَّاعَاتِ الْقَلِيلَةِ اللَّاحِقَةِ، أَبْحَرْتُ بِاتِّجَاهِ مَضِيقِ جَبَلِ طَارِقٍ، فَحَتْمًا سَيُخْبِرُ إِسْمَاعِيلُ سَيِّدَنَا أَيَّ اتِّجَاهٍ سَلَكْنَا؛ لِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّنِي ذَاهِبٌ إِلَى السَّاحِلِ الْإِسْبَانِيِّ، وَبِمُجَرَّدِ هُبُوطِ الْغَسَقِ، رَجَعْتُ بِالْقَارِبِ، فَكَانَ اتِّجَاهُنَا الْجَدِيدُ صَوْبَ الْجَنُوبِ. وَكَانَتْ مِنْطَقَةً مُخِيفَةً وَمَجْهُولَةً، لَكِنَّهَا أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يُدْرِكَنَا أَحَدٌ، وَلَمْ أُرِدْ أَبَدًا أَنْ أَعُودَ لِلْعُبُودِيَّةِ مِنْ جَدِيدٍ.

الفصل السابع

الْأَحْرَارُ

أَبْحَرْنَا لِمُدَّةِ خَمْسَةِ أَيَّامٍ قَبْلَ أَنْ نَتَوَقَّفَ. كُنَّا حِينَئِذٍ بَعِيدَيْنِ بِمَا يَكْفِي عَنْ مِينَاءِ سلا ثم أَبْحَرْنَا إِلَى أَعَالِي نَهْرٍ عَظِيمٍ، لَكِنِّي لَمْ أَعْرِفْ تَحْدِيدًا أَيْنَ كُنَّا، لَكِنَّ هَذَا لَمْ يُهِمَّنِي، تَكْفِينِي حُرِّيَّتِي. إِلَّا أَنَّ قَصُوري لَمْ يَكُنْ مُتَحَمِّسًا مِثْلِي لِلِابْتِعَادِ عَنِ السَّيِّدِ، فَكَانَ مَذْعُورًا؛ وَكُلَّمَا أَبْحَرْنَا إِلَى أَعَالِي النَّهْرِ، ازْدَادَ رَجَاءً أَلَّا نَذْهَبَ إِلَى الشَّاطِئِ، وَخَاصَّةً بَعْدَ سَمَاعِنَا أَصْوَاتًا عَالِيَةً لِحَيَوانَاتٍ لَا نَعْرِفُهَا. وَمَالَتِ الشَّمْسُ لِلْمَغِيبِ، فَفَعَلْتُ كَمَا طَلَبَ مِنِّي قَصُوري وَلَم أُغَامِرْ بِالنُّزُولِ مِنَ الْمَرْكَبِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، فَرَقَدْنَا عَلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ، وَنَظَرْنَا حَوْلَنَا نَتَرَقَّبُ.

بَعْدَهَا بِقَلِيلٍ وَقَعَ أَمْرٌ مَا! وُحُوشٌ ضَخْمَةٌ جَاءَتْ إِلَى الشَّاطِئِ، مُصْدِرَةً أَصْوَاتًا عَالِيَةً وَمُرْعِبَةً، أَصْوَاتًا مُخِيفَةً لَمْ تَسْمَعْهَا أُذُنَايَ مِنْ قَبْلُ.

انْخَلَعَ قَلْبَانَا مِنَ الرُّعْبِ، وَعِنْدَمَا سَبَحَ أَحَدُ الْوُحُوشِ تِجَاهَنَا فَزِعْنَا! مَاذَا لَوْ وَصَلَ إِلَى الْمَرْكَبِ؟ مَاذَا لَوْ صَعِدَ إِلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ؟ مَاذَا لَوْ أَغْرَقَ الْمَرْكَبَ؟ مَاذَا سَنَفْعَلُ حِينَهَا؟ هَرْوَلْتُ مُسْرِعًا وَأَمْسَكْتُ بِأَحَدِ بَنَادِقِنَا وَأَطْلَقْتُ النَّارَ فِي الْهَوَاءِ لِأُخِيفَهُ، وَوَقَعَ مَا أَرَدْتُهُ! فَأَسْرَعَ الْوَحْشُ وَسَبَحَ عَائِدًا إِلَى الشَّاطِئِ.

تَسَاءَل قَصُوري: «مَاذَا سَنَفْعَلُ؟»

أَجَبْتُهُ: «حَسَنًا، إِنَّنَا نَحْتَاجُ إِلَى مِيَاهٍ لِلشُّرْبِ، فَلَمْ يَتَبَقَّ مَعَنَا أَيٌّ مِنْهَا. وَبِالرُّغْمِ مِنْ فَزَعِنَا، عَلَيْنَا الذَّهَابُ لِلشَّاطِئِ غَدًا.»

ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ بَاكِرًا فِي صَبَاح الْيَوْمِ التَّالِي، وَجَدَّفْنَا بِبُطْءٍ نَحْوَ الْيَابِسَةِ، وَأَلْقَيْنَا بِالْمِرْسَاةِ. وَبَعْدَهَا، قَفَزْتُ أَنَا وَقَصُوري وَسَبَحْنَا سَرِيعًا قَدْرَ اسْتِطَاعَتِنَا إِلَى الشَّاطِئِ.

فَكُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَسْرِقَ مَرْكَبَنَا أَهْلُ الْبَلَدِ؛ لِذَا لَمْ أُرِدِ الذَّهَابَ بِهَا تِجَاهَ الشَّاطِئِ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي، فَقَدْ سَمِعْتُ قِصَصًا مُرِيعَةً عَنْ بَحَّارَةٍ عَلِقُوا فِي بَلَدٍ غَرِيبٍ مَعَ أَشْخَاصٍ غَيْرِ وَدُودِينَ يَسْرِقُونَ قَوَارِبَهُمْ وَجَمِيعَ أَمْتِعَتِهِمْ، وَلَمْ يُسْمَعْ عَنْ هَؤُلَاءِ الْبَحَّارَةِ ثَانِيَةً قَطُّ! وَقَالَ قَصُورِي إِنَّهُ سَيَتَحَلَّى بِالشَّجَاعَةِ وَسَيَذْهَبُ لِإِحْضَارِ مَاءِ الشُّرْبِ. فَجَلَسْتُ بِجَانِبِ الْمَرْكَبِ أُرَاقِبُ بِمِنْظَارِي.

وَبَعْدَ وَقْتٍ قَلِيلٍ، جَاءَ عَدْوًا، فَظَنَنْتُ أَنَّ هُنَاكَ مَا يُلَاحِقُهُ؛ لِذَا جَرَيْتُ نَحْوَهُ لِأَرَى إِنْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ الْمُسَاعَدَةَ. وَعِنْدَمَا وصلت إليه، أَرَانِي قَصُوري بِفَخْرٍ أَنَّهُ اصْطَادَ حَيَوَانًا بَرِّيًّا، بَدَا كَأَنَّهُ أَرْنَبٌ بَرِّيٌّ، لَكِنَّ أَلْوَانَه مُخْتَلِفَةٌ وَأَرْجُلَه أَطْوَلُ، مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ مَلِيئَةٌ بِالْعَجَائِبِ!

صِحْتُ مِنَ الْمُفَاجَأَةِ: «حَسَنًا فَعَلْتَ يَا قَصُورِي!»

أَكَلْنَا حَتَّى شَبِعْنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ، وَكُنَّا فِي غَايَةِ السَّعَادَةِ لِعُثُورِنَا عَلَى الْمَاءِ وَالْغِذَاءِ دُونَ أَنْ نُلَاقِيَ أَيًّا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ أَوْ تِلْكَ الْوُحُوشِ الَّتِي أَرْعَبَتْنَا لَيْلَةَ الْأَمْسِ.

دَفَعَتْنِي رِحْلَاتِي السَّابِقَةُ لِسَاحِلِ شَمَالِ أَفْرِيقْيَا إِلَى التَّفْكِيرِ بِأَنَّنَا كُنَّا عَلَى وَشْكِ الْوُصُولِ إِلَى جُزُرِ الْكَنَارِي، لَكِنْ بِدُونِ الْمُعَدَّاتِ، لَا يُمْكِنُنِي الْجَزْمُ بِمَكَانِنَا بِالضَّبْطِ. فَبِدُونِ مَعْرِفَةِ مَكَانِ اتِّجَاهِنَا، واصلنا الإبحار بِمُحَاذَاةِ الشَّاطِئِ. وَكَانَ أَمَلِي هُوَ مُصَادَفَةَ سَفِينَةِ تِجَارَةٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ يُمْكِنُهَا أَنْ تُعِيدَنَا إِلَى وَطَنِي.

أَبْحَرْنَا بِمُحَاذَاةَ مَنَاظِرَ طَبِيعِيَّةٍ مُزْدَهِرَةٍ مَلِيئَةٍ بِالْحَيَوَانَاتِ الْمُثِيرَةِ. وَلَمْ نَتَعَرَّفْ عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَجَوَّلَتْ حَوْلَنَا، لَكِنَّنَا أَيْضًا تَعَرَّفْنَا عَلَى الْعَدِيدِ مِنْهَا مِثْلَ الْأُسُودِ وَالنُّمُورِ وَالْفُهُودِ. وَكُنَّا نَتَوَقَّفُ كُلَّ يَوْمَيْنِ لِنَبْحَثَ عَنِ الْمَزِيدِ مِنْ مِيَاهِ الشُّرْبِ. وَاسْتَمْرَرْنَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ كَثِيرًا دُونَ أَنْ نَرَى أَشْخَاصًا، حَتَّى اقْتَنَعْتُ بِأَنْ لَا أَحَدَ يَعِيشُ فِي هَذِهِ الْأَرْجَاءِ.

الفصل الثامن

السَّفِينَةُ الإِنْجِلِيزِيَّةُ

مَرَّتْ عَشْرَةُ أَيَّامٍ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ نُصَادِفَ إِنْسَانًا غَيْرَنَا. أما عمن قَابَلْنَا مِنَ النَّاسِ بَعْدَئِذٍ، فَكَانُوا وَدُودِينَ وَمُتَعَاوِنِينَ، وَكَانُوا يَرْتَدُونَ الْقَلِيلَ مِنَ الْمَلَابِسِ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ بِنَفْسِ لُغَتِنَا، لَكِنَّهُمْ كَانُوا فِي غَايَةِ الْكَرَمِ؛ فَأَعْطَوْنَا الْغِذَاءَ وَالْمَاءَ مَعَ أَنَّنَا لَمْ نَمْلِكْ شَيْئًا لِنُعْطِيَهُمْ إِيَّاهُ فِي الْمُقَابِلِ.

وَمَعَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءَ كَانُوا فِي غَايَةِ اللُّطْفِ، كُنَا لَا نَزَالُ بِحَاجَةٍ إِلَى إِيجَادِ سَفِينَةٍ إِنْجِلِيزِيَّةٍ؛ فَقَارِبُنَا الصَّغِيرُ لَمْ يَكُنْ مُعَدًّا لِيَحْتَمِلَ كُلَّ هَذَا الْإِبْحَارِ، وَكَانَتْ فُرْصَتُنَا الْوَحِيدَةُ لِلنَّجَاةِ هِيَ أَنْ يُنْقِذَنَا أَحَدٌ. لَمْ أُخْبِرْ قَصُوري بِقَلَقِي عَلَيْنَا بِشَأْنِ اجْتِيَازِ هَذِهِ الْمِحْنَةِ؛ فَلَمْ أُرِدْ لَهُ الْخَوْفَ أَوِ الْإِحْبَاطَ.

ظَلَلْنَا نُبْحِرُ، وَمَرَّ أُسْبُوعٌ آخَرُ، وَأَخِيرًا مَرَرْنَا عَلَى بَعْضِ الْعَلَامَاتِ الَّتِي تَعَرَّفْتُ عَلَيْهَا. فَعَلَى مَسَافَةِ مَا يَقْرُبُ مِنْ ثَلَاثَةِ فَرَاسِخَ مِنَ السَّاحِلِ، تَمَكَّنْتُ مِنْ رُؤْيَةِ جُزُرِ الرَّأْسِ الأَخْضَرِ، فَأَطْلَقْتُ صَيْحَةَ فَرَحٍ!

سَأَلَنِي قَصُوري: «مَاذَا هُنَالِكَ يَا روبنسون؟»

أَشَرْتُ عَبْرَ الْمَنَاظِرِ الطَّبِيعِيَّةِ وَقُلْتُ لَهُ: «هَلْ ترى هَذِهِ الْجُزُرَ؟ مِنْ هُنَا سَنَصِلُ إِلَى إِنْجِلْتِرَا! أَصْبَحْنَا فِي أَمَانٍ، لَقَدْ نَجَوْنَا يَا قَصُوري! نَجَوْنَا!»

سَرِيعًا مَا تَحَوَّلَتِ ابْتِسَامَتِي إِلَى عُبُوسٍ عِنْدَمَا أَمْعَنْتُ التَّفْكِيرَ فِي مَوْقِفِنَا، فَإِذَا انْطَلَقْنَا عَبْرَ الْبَحْرِ الْمُمْتَدِّ وَعَلِقْنَا فِي رِيَاحٍ مُعَاكِسَةٍ، سَنَنْجَرِفُ وَلَنْ يَبْقَى لَنَا أَيُّ أَثَرٍ. فَذَهَبْتُ